عن المعاني، فكل من له أدنى مسكة من عقل، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها.

﴿ألكم الذكر وله الأنثى﴾ أي: أتجعلون لله البنات بزعمكم، ولكم البنون؟

﴿تلك إذاً قسمة ضيزى﴾ أي: ظالمة جائرة، [وأيُّ ظلم أعظم من قسمة] تقتضي تفضيل العبد المخلوق على الخالق؟ [تعالى عن قولهم علواً كبيراً].

وقوله: ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي: من حجة وبرهان على صحة مذهبكم، وكل أمر ما أنزل الله به من سلطان، فهو باطل فاسد، لا يتخذ ديناً، وهم - في أنفسهم - ليسوا بمتبعين لبرهان، يتيقنون به ما ذهبوا إليه، وإنما دلهم على قولهم، الظن الفاسد، والجهل الكاسد، وما تهواه أنفسهم من الشرك والبدع الموافقة لأهويتهم، والحال أنه لا موجب لهم يقتضي اتباعهم الظن، من فقد العلم والهدى، ولهذا قال تعالى: ﴿ولقد جاءهم من ربهم الهدى﴾ أي: الذي يرشدهم في باب التوحيد والنبوة، وجميع المطالب التي يحتاج إليها العباد، فكلها قد بينها الله أكمل بيان وأوضحه، وأدله على المقصود، وأقام عليه من الأدلة والبراهين، ما يوجب لهم ولغيرهم اتباعه، فلم يبق لأحد عذر ولا حجة من بعد البيان والبرهان، وإذا كان ما هم عليه، غايته اتباع الظن، ونهايته الشقاء الأبدي والعذاب السرمدي، فالبقاء على هذه الحال، من أسفه السفه، وأظلم الظلم، ومع ذلك يتمنون الأماني، ويغترون بأنفسهم.

ولهذا أنكر تعالى على من زعم أنه يحصل له ما تمنى وهو كاذب في ذلك، فقال: ﴿أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى﴾ فيعطي منهما من يشاء، ويمنع من يشاء، فليس الأمر تابعاً لأمانيهم، ولا موافقاً لأهوائهم.

﴿٢٦﴾ ﴿وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة: ﴿وكم من ملك في السماوات﴾ من الملائكة المقربين، وكرام الملائكة، ﴿لا تغني شفاعتهم شيئاً﴾ أي: لا تفيد من دعاها وتعلق بها ورجاها، ﴿إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ أي: لا بد من اجتماع الشرطين: إذنه تعالى في الشفاعة، ورضاه عن المشفوع له. ومن المعلوم المتقرر، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجه الله، موافقاً فيه صاحبه الشريعة، فالمشركون إذاً لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين، وقد سدوا على أنفسهم رحمة أرحم الراحمين.

﴿٢٧ - ٣٠﴾ ﴿إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمُّون الملائكة تسمية الأنثى * وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً * فأعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا * ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى﴾ يعني ان المشركين بالله المكذبين لرسله، الذين لا يؤمنون بالآخرة، وبسبب عدم إيمانهم بالآخرة تجرؤوا على ما تجرؤوا عليه، من الأقوال، والأفعال المحادة لله ولرسوله، من قولهم: «الملائكة بنات الله»، فلم ينزهوا ربهم عن الولادة، ولم يكرموا الملائكة ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثاً، والحال أنه ليس لهم بذلك علم، لا عن الله، ولا عن رسوله، ولا دلت على ذلك الفطر والعقول، بل العلم كله دال على نقيض قولهم، وأن الله منزه عن الأولاد والصاحبة، لأنه الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، وأن الملائكة كرام مقربون

إلى الله، قائمون بخدمته ﴿لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ والمشركون[1] إنما يتبعون في ذلك القول القبيح، وهو[2] الظن الذي لا يُغني من الحق شيئاً، فإن الحق لا بد فيه من اليقين المستفاد من الأدلة القاطعة والبراهين الساطعة.

ولما كان هذا دأب هؤلاء المذكورين أنهم[3] لا غرض لهم في اتباع الحق، وإنما غرضهم ومقصودهم، ما تهواه نفوسهم، أمر الله رسوله بالإعراض عمن تولى عن ذكره، الذي هو الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، والنبأ الكريم، فأعرض عن العلوم النافعة، ولم يرد إلا الحياة الدنيا، فهذا منتهى إرادته، ومن المعلوم أن العبد لا يعمل إلا للشيء الذي يريده، فسعيهم مقصور على الدنيا ولذاتها وشهواتها، كيف حصلت حصَّلوها، وبأي: طريق سنحت ابتدروها، ﴿ذلك مبلغهم من العلم﴾ أي: هذا منتهى علمهم وغايته، وأما المؤمنون بالآخرة، المصدقون بها، أولو الألباب والعقول، فهمتهم وإرادتهم للدار الآخرة، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها، وهو العلم المأخوذ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والله تعالى أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه، ممن لا يستحق

(١) كذا في ب، وفي أ: وهم.

(٢) كذا في ب، وفي أ: إلا.

(٣) كذا في ب، وفي أ: أنه.

ذلك فيكله إلى نفسه، ويخذله، فيضل عن سبيل الله، ولهذا قال تعالى: ﴿**إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى**﴾ فيضع فضله حيث يعلم المحل اللائق به.

﴿٣١ ـ ٣٢﴾ ﴿**ولله ما في السماوات وما في الأرض ليجزي الذين أساؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى * الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع المغفرة هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى**﴾ يخبر تعالى أنه مالك الملك، المتفرد بملك الدنيا والآخرة، وأن جميع من في السماوات والأرض ملك لله، يتصرف فيهم تصرف الملك العظيم، في عبيده ومماليكه، ينفذ فيهم قدره، ويجري عليهم شرعه، ويأمرهم وينهاهم، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم [عنه]، فيثيب المطيع، ويعاقب العاصي، ليجزي الذين أساؤوا العمل السيئات من الكفر فما دونه بما عملوا من أعمال الشر بالعقوبة البليغة[1].

﴿**ويجزي الذين أحسنوا**﴾ في عبادة الله تعالى، وأحسنوا إلى خلق الله، بأنواع المنافع ﴿**بالحسنى**﴾ أي: بالحالة الحسنة في الدنيا والآخرة، وأكبر ذلك وأجلّه رضا ربهم، والفوز بنعيم الجنة[2].

ثم ذكر وصفهم فقال: ﴿**الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش**﴾ أي: يفعلون ما أمرهم الله به من الواجبات، التي يكون تركها من كبائر الذنوب، ويتركون المحرمات الكبار، كالزنا، وشرب الخمر، وأكل الربا، والقتل، ونحو ذلك من الذنوب العظيمة، ﴿**إلا اللمم**﴾ وهي الذنوب الصغار، التي لا يصر صاحبها عليها، أو التي يلم بها العبد، المرة بعد المرة، على وجه الندرة والقلة، فهذه ليس مجرد الإقدام عليها مخرجاً للعبد من أن يكون من المحسنين، فإن هذه مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، تدخل تحت مغفرة الله التي وسعت كل شيء، ولهذا قال: ﴿**إن ربك واسع المغفرة**﴾ فلولا مغفرته لهلكت البلاد والعباد، ولولا عفوه وحلمه لسقطت السماء على الأرض، ولما ترك على ظهرها من دابة. ولهذا قال النبي ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن، ما اجتنبت الكبائر»، [وقوله:] ﴿**هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم**﴾ أي: هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها، وما جبلكم عليه، من الضعف والخور، عن كثير مما أمركم الله به، ومن كثرة الدواعي إلى بعض[3] المحرمات، وكثرة الجواذب إليها، وعدم الموانع القوية، والضعف موجود مشاهد منكم حين أنشاكم[4] الله من الأرض، وإذ كنتم في بطون أمهاتكم، ولم يزل موجوداً فيكم، وإن كان الله تعالى قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به، ولكن الضعف لم يزل، فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه، ناسبت الحكمة الإلهية والجود الرباني، أن يتغمدكم برحمته ومغفرته وعفوه، ويغمركم بإحسانه، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم، خصوصاً إذا كان العبد مقصوده مرضاة ربه في جميع الأوقات، وسعيه فيما يقرب إليه في أكثر الآنات، وفراره من الذنوب التي يتمقت بها عند مولاه، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين[5]، أرحم بعباده من الوالدة بولدها، فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريباً وأن يكون الله له في جميع أحواله مجيباً، ولهذا قال تعالى: ﴿**فلا تزكوا أنفسكم**﴾ أي: تخبرون الناس بطهارتها على وجه التمدح[6].

﴿**هو أعلم بمن اتقى**﴾ [فإن التقوى، محلها القلب، والله هو المطلع عليه، المجازي على ما فيه من برّ وتقوى، وأما الناس، فلا يغنون عنكم من الله شيئاً].

﴿٣٣ ـ ٦٢﴾ ﴿**أفرأيت الذي تولى * وأعطى قليلاً وأكدى * أعنده علم الغيب فهو يرى * أم لم ينبأ بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى * ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى * وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى * وأن إلى ربك المنتهى * وأنه هو أضحك وأبكى * وأنه هو أمات وأحيا * وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى * من نطفة إذا تمنى * وأن**

(١) في ب: الفظيعة.

(٢) في ب: والفوز بالجنة وما فيها من النعيم.

(٣) في ب: إلى فعل.

(٤) في ب: حين أخرجكم.

(٥) في ب: وأجود الأجودين.

(٦) كذا في ب، وفي أ: تطهرونها، وتخبرون الناس بذلك على وجه التمدح.

عليه النشأة الأخرى﴾ إلى آخر السورة يقول تعالى: **﴿أفرأيت﴾** قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده، فتولى عن ذلك وأعرض عنه؟

فإن سمحت نفسه ببعض الشيء، القليل، فإنه لا يستمر عليه، بل يبخل ويكدى ويمنع.

فإن المعروف ليس سجية له وطبيعة[١]، بل طبعه التولي عن الطاعة، وعدم الثبوت على فعل المعروف، ومع هذا، فهو يزكّي نفسه، وينزلها غير منزلتها التي أنزلها الله بها.

﴿أعنده علم الغيب فهو يرى﴾ الغيب ويخبر به، أم هو متقول على الله، متجرىء على الجمع بين الإساءة والتزكية[٢]، كما هو الواقع، لأنه قد علم أنه ليس عنده علم من الغيب، وأنه لو قُدر أنه ادعى ذلك فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب التي على يد النبي المعصوم، تدل على نقيض قوله، وذلك دليل على بطلانه.

﴿أم لم ينبأ﴾ هذا المدعي **﴿بما في صحف موسى * وإبراهيم الذي وفى﴾** أي: قام بجميع ما ابتلاه الله به، وأمره به من الشرائع وأصول الدين وفروعه، وفي تلك الصحف أحكام كثيرة من أهمها ما ذكره الله بقوله: **﴿ألا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** أي: كل عامل له عمله الحسن والسيِّىء، فليس له من عمل غيره وسعيهم شيء، ولا يتحمل أحد عن أحدٍ ذنباً، **﴿وأن سعيه سوف يرى﴾** في الآخرة فيميز حسنه من سيئه، **﴿ثم يجزاه الجزاء الأوفى﴾** أي: المستكمل لجميع العمل الحسن الخالص بالحسنى، والسيىء الخالص بالسُّوأى، والمشوب بحسبه، جزاءً تقرّ بعدله وإحسانه الخليقة كلها، وتحمد الله عليه، حتى إن أهل النار ليدخلون النار، وإن قلوبهم مملوءة من حمد ربهم، والإقرار له بكمال الحكمة ومقت أنفسهم، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم وأوردوها شر الموارد، وقد استدل بقوله تعالى: **﴿وأن ليس للإنسان إلا ما سعى﴾** من يرى أن القُرَبَ لا يفيد[٣] إهداؤها للأحياء ولا للأموات قالوا لأن الله قال: **﴿وأن ليس للإنسان ما سعى﴾** فوصول سعي غيره إليه مناف لذلك، وفي هذا الاستدلال نظر، فإن الآية إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه، وهذا حق لا خلاف فيه، وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعي غيره، إذا أهداه ذلك الغير له، كما أنه ليس للإنسان من المال إلا ما هو في ملكه وتحت يده، ولا يلزم من ذلك، أن لا يملك ما وهبه له الغير من ماله الذي يملكه.

وقوله: **﴿وأن إلى ربك المنتهى﴾** أي: إليه تنتهي الأمور، وإليه تصير الأشياء والخلائق بالبعث والنشور، وإلى الله المنتهى في كل حال، فإليه ينتهي العلم والحكم، والرحمة وسائر الكمالات، **﴿وأنه هو أضحك وأبكى﴾** أي: هو الذي أوجد أسباب الضحك والبكاء، وهو الخير والشر، والفرح والسرور والهم [والحزن]، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، **﴿وأنه هو أمات وأحيا﴾** أي: هو المنفرد بالإيجاد والإعدام، والذي أوجد الخلق وأمرهم ونهاهم، سيعيدهم بعد موتهم، ويجازيهم بتلك الأعمال التي عملوها في دار الدنيا، **﴿وأنه خلق الزوجين﴾** فسر الزوجين[٤] بقوله: **﴿الذكر والأنثى﴾** وهذا اسم جنس شامل لجميع الحيوانات، ناطقها وبهيمها، فهو المنفرد بخلقها، **﴿من نطفة إذا تمنى﴾** وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته وانفراده بالعزة العظيمة، حيث أوجد تلك الحيوانات، صغيرها كبيرها من نطفةٍ ضعيفة[٥] من ماء مهين، ثم نماها وكملها، حتى بلغت ما بلغت، ثم صار الآدمي منها إما إلى أرفع المقامات في أعلى عليين، وإما إلى أدنى الحالات في أسفل سافلين، ولهذا استدل بالبداءة على الإعادة، فقال: **﴿وأن عليه النشأة الأخرى﴾** فيعيد العباد من الأجداث، ويجمعهم ليوم الميقات، ويجازيهم على الحسنات والسيئات، **﴿وأنه هو أغنى وأقنى﴾** أي: أغنى العباد بتيسير أمر معاشهم من التجارات وأنواع المكاسب، من الحرف وغيرها، وأقنى أي: أفاد عباده من الأموال بجميع أنواعها، ما يصيرون به مقتنين لها، ومالكين لكثير من الأعيان، وهذا من نعمه على عباده أن جميع النعم منه تعالى[٦]، وهذا يوجب للعباد أن يشكروه، ويعبدوه وحده لا شريك له، **﴿وأنه هو رب الشعرى﴾** وهي النجم المعروف بالشعرى العبور، المسماة بالمرزم، وخصها الله بالذكر، وإن كان رب كل شيء، لأن هذا النجم مما عُبد في الجاهلية، فأخبر تعالى أن جنس ما يعبده المشركون مربوب مدبر مخلوق، فكيف تتخذ إلهاً مع الله[٧]، **﴿وأنه أهلك عاداً الأولى﴾** وهم قوم هود عليه السلام، حين كذبوا

---

(١) في ب: فإن الإحسان ليس سجية له وطبعاً.

(٢) فتجرىء عليه جامعٌ بين المحذورين الإساءة والتزكية.

(٣) في ب: لا يجوز.

(٤) في ب: فسرهما.

(٥) كذا في ب، وفي أ: قليلةٍ.

(٦) في ب: وهذا من نعمه تعالى أن أخبرهم أن جميع النعم منه.

(٧) في ب: فكيف تتخذ مع الله آلهة.

هوداً، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية، ﴿وثمود﴾ قوم صالح عليه السلام، أرسله الله إلى ثمود فكذبوه، فبعث الله إليهم[١] الناقة آية، فعقروها وكذبوه، فأهلكهم الله تعالى، ﴿فما أبقى﴾ منهم أحداً، بل أهلكهم الله عن آخرهم[٢]، ﴿وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى﴾ من هؤلاء الأمم، فأهلكهم الله وأغرقهم في اليم، ﴿والمؤتفكة﴾ وهم قوم لوط عليه السلام ﴿أهوى﴾ أي: أصابهم الله بعذاب ما عذب به أحداً من العالمين، قلب أسفل ديارهم أعلاها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل، ولهذا قال: ﴿فغشاها ما غشى﴾ أي: غشيها من العذاب الأليم الوخيم ما غشى أي: شيء عظيم لا يمكن وصفه، ﴿فبأي آلاء ربك تتمارى﴾ أي: فبأي: نعم الله وفضله تشك أيها الإنسان؟ فإن نعم الله ظاهرة لا تقبل الشك بوجه من الوجوه، فما بالعباد من نعمة إلا منه تعالى، ولا يدفع النقم إلا هو.

﴿هذا نذير من النذر الأولى﴾ أي: هذا الرسول القرشي الهاشمي محمد بن عبد الله، ليس ببدع من الرسل، بل قد تقدمه من الرسل السابقين، ودعوا إلى ما دعا إليه، فلأي: شيء تنكر رسالته؟ وبأي: حجة تبطل دعوته؟

أليست أخلاقه [أعلا] أخلاق الرسل الكرام، أليست دعوته إلى كل خير والنهي عن كل شر؟[٣]

ألم يأت بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد؟ ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام؟ فما الذي يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد سيد المرسلين، وإمام المتقين، وقائد الغرّ المحجّلين؟

﴿أزفت الآزفة﴾ أي: قربت القيامة، ودنا وقتها، وبانت علاماتها، ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾ أي: إذا أتت القيامة وجاءهم العذاب الموعود به.

ثم توعد المنكرين لرسالة الرسول محمد ﷺ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم، فقال: ﴿أفمن هذا الحديث تعجبون﴾؟ أي: أفمن هذا الحديث الذي هو خير الكلام وأفضله وأشرفه تتعجبون منه، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة الخارقة للأمور [والحقائق] المعروفة؟ هذا من جهلهم وضلالهم وعنادهم، وإلا فهو الحديث الذي إذا حدث صدق، وإذا قال قولاً فهو القول الفصل الذي ليس بالهزل، وهو القرآن[٤] العظيم، الذي لو أنزل على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، الذي يزيد ذوي الأحلام رأياً وعقلاً، وتسديداً وثباتاً، وإيماناً ويقيناً والذي[٥] ينبغي العجب من عقل من تعجّب منه، وسفهه وضلاله.

﴿وتضحكون ولا تبكون﴾ أي: تستعملون الضحك والاستهزاء به، مع أن الذي ينبغي أن تتأثر منه النفوس، وتلين له القلوب، وتبكي له العيون، سماعاً لأمره ونهيه، وإصغاء لوعده ووعيده، والتفاتاً لأخباره الحسنة الصادقة، ﴿وأنتم سامدون﴾ أي: غافلون عنه، لاهون عن تدبره، وهذا من قلة عقولكم وأديانكم، فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه في جميع الأحوال لما كنتم بهذه المثابة التي يأنف منها أولو الألباب، ولهذا قال تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾ الأمر بالسجود لله خصوصاً، ليدل ذلك على فضله[٦]، وأنه سر العبادة ولبها، فإن لبها الخشوع لله[٧] والخضوع له، والسجود هو أعظم حالة يخضع بها العبد[٨]، فإنه يخضع قلبه وبدنه، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة موضع وطء الأقدام.

ثم أمر بالعبادة عموماً، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة.

تم تفسير سورة النجم، والحمد لله الذي لا نحصي ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، وصلى الله على محمد وسلم تسليماً كثيراً.

تفسير سورة اقتربت مكية

﴿١ ـ ٥﴾ ﴿بسم الله الرحمن الرحيم اقتربت الساعة وانشق القمر * وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر * وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر * ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر * حكمة بالغة فما تغني النذر﴾ يخبر تعالى أن الساعة وهي القيامة اقتربت وآن أوانها، وحان وقت مجيئها، ومع ذلك، فهؤلاء المكذبون لم يزالوا مكذبين بها، غير مستعدين لنزولها، ويريهم الله من الآيات العظيمة الدالة على وقوعها ما يؤمن على

---

(١) في ب: لهم.
(٢) في ب: بل أبادهم عن آخرهم.
(٣) في ب: أليس يدعو إلى كل خير، وينهي عن كل شر.
(٤) في ب: القرآن.
(٥) في ب: بل الذي.
(٦) في ب: يدل على فضله.
(٧) في ب: فإن روحها الخشوع لله.
(٨) في أ: القلب، وفي ب: الكلمة غير واضحة، وقد جعلتها العبد لمناسبة الكلمة للسياق لقوله فيما بعد: (قلبه وبدنه).

إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

مثله البشر، فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله ﷺ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ما يدل على [صحة ما جاء به و] صدقه، أشار ﷺ إلى القمر بإذن الله تعالى، فانشق فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى[1] الكائنة في العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمراً ما رأوا مثله، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك، ولم يدخل الإيمان في قلوبهم، ولم يرد الله بهم خيراً، ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم، وقالوا: سحرنا محمد، ولكن علامة ذلك أنكم تسألون من قدم[2] إليكم من السفر، فإنه وإن قدر على سحركم، لا[3] يقدر أن يسحر من ليس مشاهداً مثلكم، فسألوا كل من قدم، فأخبرهم بوقوع ذلك، فقالوا: ﴿سحر مستمر﴾ سحرنا محمد وسحر غيرنا، وهذا من البهت الذي لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل، وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها، بل كل آية تأتيهم، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالباطل[4] والرد لها، ولهذا قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ ولم يعد الضمير على انشقاق القمر فلم يقل: وإن يروها بل قال: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ وليس قصدهم اتباع الحق والهدى، وإنما قصدهم اتباع الهوى، ولهذا قال: ﴿وكذبوا واتبعوا أهواءهم﴾ كقوله تعالى: ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى، لآمنوا قطعاً، واتبعوا محمداً ﷺ، لأنه أراهم الله على يديه[5] من البينات والبراهين والحجج القواطع، ما دل على جميع المطالب الإلهية، والمقاصد الشرعية، ﴿وكل أمر مستقر﴾ أي: إلى الآن، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه، وسيصير الأمر إلى آخره، فالمصدق يتقلب في جنات النعيم، ومغفرة الله ورضوانه، والمكذب يتقلب في سخط الله وعذابه، خالداً مخلداً أبداً.

وقال تعالى ـ مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح، ولا اتباع للهدى ـ: ﴿ولقد جاءهم من الأنباء﴾ أي: الأخبار السابقة واللاحقة والمعجزات الظاهرة ﴿ما فيه مزدجر﴾ أي: زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم، وذلك ﴿حكمة﴾ منه تعالى ﴿بالغة﴾ أي: لتقوم حجته على المخالفين[6]، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل، ﴿فما تغن النذر﴾ كقوله تعالى: ﴿ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾.

﴿٦ ـ ٨﴾ ﴿فتول عنهم يوم يدع الداع إلى شيء نكر * خشعاً أبصارهم يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر * مهطعين إلى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر﴾ يقول تعالى لرسوله ﷺ: قد بان أن المكذبين لا حيلة في هداهم، فلم يبق إلا الإعراض عنهم والتولي عنهم، [فقال:] ﴿فتول عنهم﴾ وانتظر بهم يوماً عظيماً وهَوْلاً جسيماً، وذلك حين ﴿يدع الداع﴾ إسرافيل عليه السلام ﴿إلى شيء نكر﴾ أي: إلى أمر فظيع تنكره الخليقة، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه، فينفخ إسرافيل نفخة، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة، ﴿خشعاً أبصارهم﴾ أي: من الهول والفزع الذي وصل إلى قلوبهم، فخضعت وذلت، وخشعت لذلك أبصارهم.

﴿يخرجون من الأجداث﴾ وهي القبور، ﴿كأنهم﴾ من كثرتهم، وروجان بعضهم ببعض ﴿جراد منتشر﴾ أي: مبثوث في الأرض، متكاثر جداً، ﴿مهطعين إلى الداع﴾ أي: مسرعين لإجابة النداء الداعي[7]، وهذا يدل على أن الداعي يدعوهم ويأمرهم بالحضور لموقف القيامة، فيلبون دعوته، ويسرعون إلى إجابته، ﴿يقول الكافرون﴾ الذين قد حضر عذابهم: ﴿هذا يوم عسر﴾ كما قال تعالى ﴿على الكافرين غير يسير﴾

(١) في ب: العظيمة.
(٢) في ب: من ورد.
(٣) في ب: لم.
(٤) في ب: بالتكذيب.
(٥) كذا في النسختين والمراد ظاهر وهو أن الله أراهم على يديه.
(٦) في ب: العالمين.
(٧) كذا في ب، وفي أ: مسرعين لنداء الداعي.

[مفهوم ذلك أنه يسيرٌ سهلٌ على المؤمنين][1]

﴿٩ ــ ١٧﴾ ﴿كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر * فدعا ربه أني مغلوب فانتصر * ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر * وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمر قد قدر * وحملناه على ذات ألواح ودسر * تجري بأعيننا جزاء لمن كان كفر * ولقد تركناها آية فهل من مدكر * فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله، وأن الآيات لا تنفع فيهم، ولا تجدي عليهم شيئاً، أنذرهم وخوَّفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل، وكيف أهلكهم الله وأحلَّ بهم عقابه.

فذكر قوم نوح، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام، فدعاهم إلى توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فامتنعوا من ترك الشرك وقالوا: ﴿لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً * ولا يغوث ويعوق ونسراً﴾.

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، فلم يزدهم ذلك إلا عناداً وطغياناً، وقدحاً في نبيهم، ولهذا قال هنا: **﴿فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون﴾** لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه الصلاة والسلام جهل وضلال، لا يصدر إلا من المجانين، وكذبوا في ذلك، وقلبوا الحقائق الثابتة شرعاً وعقلاً، فإن ما جاء به هو الحق الثابت، الذي يرشد العقول النيرة المستقيمة، إلى الهدى والنور والرشد، وما هم عليه جهل وضلال مبين، [وقوله:] **﴿وازدجر﴾** أي: زجره قومه وعنفوه عندما دعاهم إلى الله تعالى، فلم يكفهم ـ قبحهم الله ـ عدم الإيمان به، ولا تكذيبهم إياه، حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ما قدروا عليه، وهكذا جميع أعداء الرسل، هذه حالهم مع أنبيائهم، فعند ذلك دعا نوح ربه [فقال:] **﴿أني مغلوب﴾** لا قدرة لي على الانتصار منهم، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل النادر، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم، **﴿فانتصر﴾** اللهم لي منهم، وقال في الآية الأخرى: **﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّاراً﴾** الآيات، فأجاب الله سؤاله، وانتصر له من قومه، قال تعالى: **﴿ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾** أي: كثير جداً متتابع، **﴿وفجرنا الأرض عيوناً﴾** فجعلت السماء ينزل منها من الماء شيء خارق للعادة، وتفجرت الأرض كلها، حتى التنور الذي لم تجر العادة بوجود الماء فيه، فضلاً عن كونه منبعاً للماء، لأنه موضع النار.

﴿فالتقى الماء﴾ أي: ماء السماء والأرض **﴿على أمر﴾** من الله له بذلك، **﴿قد قُدر﴾** أي: قد كتبه الله في الأزل وقضاه، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين، **﴿وحملناه على ذات ألواح ودسر﴾** أي: ونجينا عبدنا نوحاً على السفينة ذات الألواح والدسر أي: المسامير [التي] قد سمرت [بها] ألواحها وشدبها أسرها[2]، **﴿تجري بأعيننا﴾** أي: تجري بنوح ومن آمن معه، ومن حمله من أصناف المخلوقات برعاية من الله، وحفظٍ [منه] لها عن الغرق [ونظرٍ]، وكلائه منه تعالى، وهو نعم الحافظ الوكيل، **﴿جزاء لمن كان كفر﴾** أي: فعلنا بنوح ما فعلنا من النجاة من الغرق العام، جزاء له حيث كذبه قومه وكفروا به فصبر على دعوتهم، واستمر على أمر الله، فلم يرده عنه راد، ولا صدّه عنه[3] صاد، كما قال [تعالى] عنه في الآية الأخرى: **﴿قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك﴾** الآية.

ويحتمل أن المراد: أنا أهلكنا قوم نوح، وفعلنا بهم ما فعلنا من العذاب والخزي، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، وهذا متوجه على قراءة من قرأها بفتح الكاف، **﴿ولقد تركناها آية فهل من مدكر﴾** أي: ولقد تركنا قصة نوح مع قومه آية يتذكر بها المتذكرون، على أن من عصى الرسل وعاندهم أهلكه الله بعقاب عام شديد، أو أن الضمير يعود إلى السفينة وجنسها، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لعبده[4] نوح عليه السلام، ثم أبقى الله تعالى صنعتها وجنسها بين الناس ليدل ذلك على رحمته بخلقه وعنايته، وكمال قدرته، وبديع صنعته، **﴿فهل من مدكر﴾**؟ أي: فهل متذكر[5] للآيات، مُلقٍ ذهنه وفكرته لما يأتيه منها، فإنها في غاية البيان واليسر؟ **﴿فكيف كان عذابي ونذر﴾** أي: فكيف رأيت أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذي لا يُبْقي لأحد عليه حجة.

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ أي: ولقد يسرنا وسهلنا هذا

---

(١) زيادة من هامش: ب.

(٢) كذا في ب، وفي أ: وشدت أسرها.

(٣) في ب: ولا صده عن ذلك صاد.

(٤) في ب: لرسوله.

(٥) في ب: فهل من متذكر.